الحلم والتحلم . . .

للاستاذ محمود عزت عرفة

(تتمة)

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

تحامى الرذائل :

قال طرفة فى شعر له : حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض !

وتلك جملة موجزة فى لفظها وفى معناها ، ولكنها تنطوى على حكمة بليغة ، وتكوّن نظرية فى الأخلاق عظيمة النفع إذا نحن حاولنا أن نفهمها وأن نحسن تطبيقها ، ومؤدّى هذه النظرية أن يتقبل الإنسان الشر من الشرور ، ويحتمل غضاضة الرذيلة من الرذائل ، تخلصاً بهما من شر ورذيلة أبلغ ضرراً وأوخم عاقبة وتعد هذه مرحلة — لا بد منها — نتحول بها من وضع إلى وضع ، فنخلص بأنفسنا من غياض الشر إلى رياض الخير ، وننتقل بجوهر أخلاقنا من مناقع الرذيلة إلى منابع الفضيلة .

ذلك أن الخير (كالحلال) بيّن ، والشر (كالحرام) بيّن ، وبينهما أمور متشابهة ، يلتبس فيها حق بباطل ، ويلتقى مباح بممنوع ...

وتحذير الرسول عليه الصلوات ، فى حديثه المعروف ، من هذه المواطن التى يشتبه فيها الحرام بالحلال إنما يتجه إلى الأخيار الذين أحرزوا من الفضيلة القسط الوافر . لأن تلبس أحدهم بالمتشابهات يعد انتكاساً له بعد عافية ، وانحداراً لنفسه بعد ارتقاء ، أما من ران الشر على قلوبهم ، وملكت الرذيلة عليهم وردهم — وصدرهم ، فهؤلاء سبيلهم إذا أرادوا الخلاص لأنفسهم أن يحاولوا « الترقى » أولا إلى درجة المتشابهات ، لأنها الطريق المفضى بهم فيما بعد إلى الخير والفضيلة خالصين من كل شائبة . ويعد هذا الترقى إلى المتشابهات فى حقهم فضيلة وتقدما ، وإن عُد فى حق الفضلاء من غيرهم شراً وارتكاساً ، ولا غرو فحسنات العاصين سيئات المطيعين !

وقد ذكرنا قبلُ من دواعى (التحلم) ما يُعدّ وسائل إلى بلوغه وتحصيله ، وضروباً من ترويض النفس وإغرائها على الأخذ منه بنصيب .

ونضيف هنا إلى ماسبق هنالك أن التحول بالنفس من معرة الغضب والحدة ، إلى كمال الحلم وفضيلة الإسجاح ، قد لا يتم دفعة ؛ وإنما يكون على مرحلة أو مراحل تساير فيها النفس التى

فى أذهاننا باطلة . فكيف نعلم ما يؤثر فيها وما لا يؤثر فيها على وجه التحقيق ؟

« والذى يثبت فى روعنا أن الكائنات خلق واحد يدور حول (الوحدانية) ، ولا فرق بينها غير الفرق بين التعميم والتخصيص .

« فالتعميم مظهر المادة ، والتخصيص مظهر العقل والحياة .

« فالمادة فى أبسط صورها شعاع « عام » لا فرق فيه بين مكان ومكان من الفضاء » .

ولقد ميز ديكارت من قبل بين المادة والفكر ، وجعل فى العالم ثنائية يصعب الجمع بينهما بعد ذلك . غير أن اسبينوزا بالذات وهو من المدرسة الديكارتية ، اضطر للتوفيق بينهما إلى القول بوجود ما يسميه الامتداد العقلى

مهما يكن من شىء فإن اهتداء العلم الحديث إلى أصل المادة وأنها ذرة أو جزء لا يتجزأ ، وأن هذه الذرة هى فى النهاية إشعاع أو طاقة ، كل ذلك لا يحل مشكلة المادة والعقل ، لأن العقل ليس إشعاعاً ... من يدرى لعله كذلك ولكننا لا نستطيع أن نجزم بشىء .

والعبر التى نأخذها من كتاب العقاد كثيرة ، منها أن اتجاه مفكرينا وجهة فلسفية دليل على الرقى العقلى ، والسمو إلى عالم المعانى ، ومنها أن استساغة الجمهور لهذا النوع من التأليف ، بل إقباله عليه . دليل على رقى الجمهور بل على انتقاله من طفولة الفكر إلى شبابه .

والخاتمة الفلسفية هى نهاية التقدم .

أحمد فؤاد الأهوانى

نعالجها من حال إلى حال . فقد نستطيع مثلا أن نفثأ من حر غضبها وشدة بادرتها بنوازع — نجعلها تستريح إليها مؤقتاً — من الكبر والاستهانة بالمسيء وتحقير شأنه .

ونحن لم نعدُ فى هذا أن تحولنا بها من رذيلة إلى رذيلة ، ولكن إذا مرنت النفس على ذلك ، وتزحزحت عما استولى عليها من الغضب والحدة إلى خلق طارىء من الأنفة والاستكبار أمكننا أن نعالج هذه الحالة الأخيرة بوسائل علاجها ، ثم لا تزال تنتقل بالنفس من وضع إلى وضع حتى تخرج عن حد الرذائل والمتشابهات جملة ، وتنتهى إلى الخير المحض الذى نتوخاه لها . وقد نص الغزالى على هذه الوسيلة من العلاج فى مؤلفاته غير مرة فهو يقول مثلا فى كتاب « رياضة النفس وتهذيب الأخلاق » من سفر الإحياء : من لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ، ولم يسمح بضدها دفعة ؛ فينبغى أن ينقله — أى المرشد — من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ؛ كالذى يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء ، إذا كان الماء لا يزيل الدم . وكما يرغب الصبى فى المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب فى الرياسة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب فى الآخرة .هـ.

وفى « ربع المهلكات »[1] من سفر الإحياء إشارات متعددة إلى هذا العلاج يدرجها الغزالى فى أعقاب كل خلق مرذول عند النص على أوجُهِ علاجه . ففى كتاب ذم البخل وذم حب المال يقول : ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً فى حشمة الجود ؛ فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب لها خبث الرياء . ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه . ويكون طلب الإسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلّى الصبى عند الفطام عن الثدى باللعب بالعصافير وغيرها ، لا ليخلّى واللعب ، ولكن لينفك عن الثدى إليه ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغى أن يسلط بعضها على بعض . هـ

وهذا العلاج الذى وضعنا له عنوان « تحاحى الرذائل » ينطوى على خطر غامض دقيق يستوجب الا يتعرض لمزاولته وأخذ المريد به إلا كل طَبٍّ خبير بأدواء النفوس ، عارف بالعلل الخلقية دقيقها وجليلها ، وأيها أسهب علاجاً ، وأيها أيسر تحولا ... وإلا تفاقمت العلة بمريضه وهو يحاول شفاءه ، أو مات بين يديه وهو يريد إحياءه ...

وقد سبق الغزالى إلى توضيح هذه الخطورة وإلى التحذير منها — وكم للغزالى من سبقٍ إلى مثل هذه الحقائق النفيسة الخالدة — فهو يقول بعد ذكر علاج البخل (بتكلف السخاء على قصد الرياء) : إلا أن هذا مفيد فى حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبدل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه ، فإنه يقلع من علة ويزيد فى أخرى مثلها !

ويضرب لنا الغزالى فى موضع آخر مثالا حسياً عجيباً لتناحر هذه الرذائل واصطراعها فى النفس حتى تضعف فتفنى جميعاً ، وتحل محلها الفضيلة التى جعلناها هدفنا من العلاج ، فيقول : مثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الليت تستحيل جميع أجزائه دوداً ، ثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقل عددها ، ثم يأكل بعضها بعضاً حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداها الأخرى فتأكلها وتسمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت . فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلّط بعضها على بعض حتى يقمعها ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة . هـ

خاتمة :

الحلم كسائر الفضائل وسط ممدوح بين طرفين مذمومين . فإذا نحن « تحيّفنا » منه متجهين إلى أحد طرفيه كان ذلك تفريطاً فى الحلم يتحول بنا إلى الحدّة وإلى السفه وسرعة الغضب . وإذا نحن « تزيدنا » فيه متجهين إلى طرفه الثانى كان إفراطاً يفضى إلى الضعف والخور وفقد الحمية ، وكلا الطرفين مذموم .

(١) يقسم الغزالى مؤلفه النفيس (إحياء علوم الدين) أربعة أرباع : ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات ؛ وكل ربع يتألف من عشرة كتب فجملة (الاحياء) أربعون كتابا .

أما الأول فحاله معروف ، والتحذير من الغضب كثير ، لأن النفوس إليه أسرع ، فكان التخويف منه أوجب وأولى .

وأما فقد الحمية فآفة أقل — فى سواد الناس — من الغضب انتشاراً ، ومع ذلك يتردد ذمها كثيراً ، لأنها الإفراط التناهى فى الحلم الذى يتحول به من ممدوح الفضائل إلى مقبوح الرذائل.

يقول الغزالى فى هذا المعنى : « لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم فى جانب الرفق أكثر ؛ فلذا كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف فى محله حسناً ، كما أن الرفق فى محله حسن . فإذا كان الواجب هو العنف ، فقد وافق الحق الهوى ، وهو ألذ من الزبد بالشهيد ! »

هذا ، ومن الشاهد الذى يستحق التسجيل أن السفه قد يكون مستحسناً فى بعض المواطن ، وربما يبدو فى بعض الظروف واجباً حتى ليذكر فى معرض المدح . ومن هنا يقول عمرو بن العاص : أكرموا سفهاءكم فإنهم يقونكم العار والشنار! ويقول مصعب بن الزبير : ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا ! ويقول الشافعى ناصحاً للفقهاء : ينبغى للفقيه أن يكون معه سفيه ليسافه عنه !

وانظر بعد إلى قول أبى تمام فى مدح إسحق بن إبراهيم المصعبى:

إن المنايا طوع بأسك، والوغى ممزوج كأسك من ردًى وكلوم
والحرب تركب رأسها فى مشهد عُدل السفيه به بألف حليم !
فى ساعة لو أن لقمانا بها — وهو الحكيم — لكان غير حكيم

وفى حديث شريف : خير أمتى أحداؤها (من الحدة) الذين إذا غضبوا رجعوا . ومن مأثور قول الشافعى : من استُغضب فلم يغضب فهو حمار . قال الغزالى : « فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جداً . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال : أشداء على الكفار رحماء بينهم . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ... وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية ، وهو الغضب » .

على أن الغزالى يحدد لنا صفة الغضب فى موضع آخر فيقول :

« المطلوب من صفة الغضب حسن الحمية ، وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً ؛ وبالجملة أن يكون فى نفسه قوياً ، ومع قوته منقاداً للعقل »

فليس يغنى المرء إذن أن يُعرف بالحلم فى موضعه ما لم يعرف بالغضب كذلك فى موضعه ؛ وإذا قلنا (الغضب فى موضعه) ، فقد جعلناه فضيلة وحكمة ، إذ ليست الحكمة إلا وضع الأمور فى مواضعها . بل لو قرنّا ذكر أية رذيلة بقولنا (فى موضعها) لأصبحت فضيلة يُحث عليها ويشاد بذكرها. فالكذب فى موضعه فضيلة وقد نسميه : حسن التأتى ، واللباقة ، وحسن التصرف . والجبن فى موضعه فضيلة ، نسميه : الحرص ، والتوقى ، والحذر.. وهكذا .

القياس الصحيح إذن أن نوائم بين تصرفنا — بالقول أو بالعمل — وبين الموقف الذى نكون فيه ؛ وبقدر اختلاف المواقف يكون اختلاف التصرفات . والخطأ فى التطبيق هنا يتأتى من الخلط بين كل موقف وما يلائمه من تصرف . وأحسب أن النعمان بن المنذر كان أحد من أخطأوا على هذا الوجه . فقد روى أنه أتى برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيما فعفا عنه ، والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه . ثم أنشد يقول :

تعفو الملوك عن العظيـ ـم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب فى اليسيـ ـر ، وليس ذاك لجهلها ...
لكن ليُعرف حلمها وتُخاف شدة ذحلها !

وهذا سوء تصرف منشؤه الخلط بين مواطن العفو ومواطن العقوبة

نعم ، كان من حق النعمان أن يعرّف الناس حلمه ، وأن يخوفهم شدة ذحله ، لكن على أن يجعل لكل من الحالين موضعاً لا يعدوه ، وشرطاً لا يخل به . فأما وقد فاته ذلك فقد صيّر حلمه تفريطاً وعقوبته إفراطاً ... وكلا الأمرين وضَح[1] فى جبين الحق ، وانحراف فى ميزان الحكمة والعدالة .

(تم الحديث — جرجا)

محمود عزت عرفة

(١) من معانى الوضح : الضوء والغرة والشيب ، والبرص ، والمعنى الأخير نريد ؛ ومنه سمى جذيمة الأبرش بالوضوح انظر القاموس